البلاغة والرياضيات
قراءة في نصوص القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة

البلاغة علم متشعب العلاقات مع العلوم الأخرى، فكثيرًا ما نقرأ مقالات وكتبًا عن العلاقة الوطيدة الراسخة بين البلاغة والقرآن الكريم، أو بين البلاغة والتفسير القرآني، أو بين البلاغة والحديث الشريف، أو بين البلاغة وعلمي النحو والصرف، وربّما بنسب أقلّ من ذلك بكثير عن علاقة البلاغة بعلم العقيدة، أو علم الكلام، أو علم الأصول، أو علم الفقه، مع أنّه مما لا شكّ فيه أنّ البلاغة تطبع آثارها العميقة في ذلك كلّه، فتفسير النصّ الديني، وتحليله ودلالته يتقاطع – قبل ذلك كلّه – تقاطعًا ضروريًا لزوميًا مع مرحلة فهم النصّ، وهل استعمل النصّ تعبيراته على نحو الحقيقة أم المجاز؟، إلى سائر الدلالات الكامنة فيه والمخبوءة في ألفاظه وأساليبه، والتي تكون علوم اللغة – وعلى رأسها البلاغة – المحدِّد الأساس لمعناه ودلالته.

ومع هذه العلاقات المتواشجة، وأهميتها في تحديد المعنى والدلالة، والتي بُحث بعضها بوفرة واتساع، وبعضها بندرة وشحوب، تبرز علاقة أخرى لعلّنا لم نرَ بحثًا فيها، وهي: علاقة البلاغة بالرياضيات، فهل للبلاغة علاقة بالرياضيات؟

وللإجابة على هذا السؤال الحسّاس من المستحسن أن نقف عند أربعة أسئلة ممهّدة له؛ ليكون سؤال العلاقة خامسها، ومن ثم نتدرّج في سُلّم موضوعي تصاعدي حسب الآتي: ما المقصود بـ (البلاغة)؟ وماذا نعني بـ (الرياضيات)؟ وما موضوع الرياضيات؟ وما فروع الرياضيات التي تندرج تحتها موضوعاته وقضاياه؟ ثم ما العلاقة الجامعة بين البلاغة والرياضيات؟ ومن المعلوم سلفًا أن الرياضيات تشمل ثلاثة فروع وحقول أساسية هي: الحساب: ويعنى بالعدد. والهندسة: وتعنى بخواصّ المقادير، كالأشكال من مربعات ومثلثات ودوائر ومستطيلات، وخطوط، وتوازٍ، وتقاطع، وغير ذلك. والجبر: ويعنى بالكسور والمعادلات ونسبة العلاقات بين الأعداد.

ويمكننا أن نختصر العلاقة بين البلاغة والرياضيات بالقول: إنّها علاقة تكاملية تبادلية، فكلٌّ منهما يكمل الآخر، ويستفيد منه، ويفيده، وهذا ما سيهتم البحث بتوضيحه من خلال الوقوف على بعض نماذج من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

والله الموفق

rhetoric and Mathematics A Study in the Holy Quran and the Traditions

rhetoric is a branch of knowledge which is intricately intertwined with other branches of knowledge.
We occasionally read essays and books on the deep-rooted relationship between stylistics (rhetoric) and the holy Quran, the interpretation of the holy Quran, the prophetic traditions, syntax and morphology; and perhaps, in a lesser degree, between stylistics (rhetoric) and religion or theology, and its relationship with fundamentals of jurisprudence.

Stylistics (rhetoric) undoubtedly has deep traces in all those branches of knowledge; for example, interpreting and analyzing a religious text inevitably intersects with the stage of understanding the text; as we raise the question: does the text have a literal or a figurative meaning?; and many more questions on the potential connotations latent in its expressions and style. The meaning is essentially determined by aid of linguistics but most importantly by stylistics (rhetoric). Among these closely intertwined relationships with their semantic significance in determining the meaning; some of which have been abundantly pursued, and some others scarcely discussed, a new relationship appears. This relationship, in which we have not yet seen a study, is that between stylistics (rhetoric) and mathematics. But is stylistics (rhetoric) related to mathematics?

To answer this question it is favourable to raise four introductory questions so as to make this question the fifth one. Then we can gradually and objectively ascend in raising the questions as follows: What is meant by stylistics (rhetoric)? And what do we mean by mathematics? What is the subject of mathematics? What are the branches and the issues that belong to mathematics? And what is the relation linking stylistics (rhetoric) to mathematics? It is already known that mathematics involves main branches: arithmetic; which deals with numbers, geometry; which deals with shapes and sizes of figures, algebra; which deals with fractions and formulas.

In a nutshell, we can describe the relationship between stylistics (rhetoric) and mathematics as an integrative and mutual relationship. Every one completes and benefits from the other. This study is interested in explaining this by studying examples from the holy Quran and the prophetic traditions.

Allah bless,

البلاغة والعلوم:

كثيرًا ما نقرأ مقالات وكتبًا عن العلاقة الوطيدة الراسخة بين البلاغة والقرآن الكريم، أو بين البلاغة والتفسير القرآني، أو بين البلاغة والحديث الشريف، أو بين البلاغة وعلمي النحو والصرف، وربّما بنسب أقلّ من ذلك بكثير عن علاقة البلاغة بعلم العقيدة، أو علم الكلام، أو علم الأصول، أو علم الفقه، مع أنّه مما لا شكّ فيه أنّ البلاغة تطبع آثارها العميقة في ذلك كلّه، فتفسير النصّ الديني، وتحليله ودلالته يتقاطع – قبل ذلك كلّه – تقاطعًا ضروريًا لزوميًا مع مرحلة فهم النصّ، وهل استعمل النصّ تعبيراته على نحو الحقيقة أم المجاز؟، إلى سائر الدلالات الكامنة فيه والمخبوءة في ألفاظه وأساليبه، والتي تكون علوم اللغة – وعلى رأسها البلاغة – المحدِّد الأساس لمعناه ودلالته.

ومع هذه العلاقات المتواشجة، وأهميتها في تحديد المعنى والدلالة، والتي بُحث بعضها بوفرة واتساع، وبعضها بندرة وشحوب، تبرز علاقة أخرى لعلّنا لم نرَ بحثًا فيها، وهي: علاقة البلاغة بالرياضيات.

البلاغة والرياضيات:

هل للبلاغة علاقة بالرياضيات؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال الحسّاس من المستحسن أن نقف عند أربعة أسئلة ممهّدة له؛ ليكون سؤال العلاقة خامسها، ومن ثم نتدرّج في سُلّم موضوعي تصاعدي حسب الآتي:

١. ما المقصود بـ (البلاغة)؟

٢. ماذا نعني بـ (الرياضيات)؟

٣. ما موضوع الرياضيات؟

٤. ما فروع الرياضيات التي تندرج تحتها موضوعاته وقضاياه؟

٥. ما العلاقة الجامعة بين البلاغة والرياضيات؟

١ـ المقصود بـ (البلاغة)؟

البلاغة – في اللغة .: الوصول والانتهاء، يقول ابن منظور: "بلغ: (بَلَغَ الشيءُ، يَبْلُغُ بُلُوغًا وبَلاغًا): وصَلَ وانْتَهَى"[١].

والبلاغة – في الاصطلاح –: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع فصاحته"[٢].

٢ـ ماذا نعني بـ (الرياضيات)؟

كان علم الرياضيات منذ القدم أحد العلوم التي انشغل بها العديد من العلماء؛ لأهميتها الكبيرة، إلّا أنّ الرياضيات في الأزمان القديمة لم يكن متسّعًا كما هو عليه الآن، ولهذا تطور تعريفه مع تطور الزمن، فعلى سبيل المثال عرّف أرسطو الرياضيات بأنّه علم الكمّ، وكما نعلم اليوم أنّ الكمّ هو جزءٌ من الرياضيات؛ فالرياضيات يبحث في العديد من الأمور الأخرى.

وعرّف آخرون الرياضيات على أنّه علم القياس غير المباشر، وهو ما قاله الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت؛ لأنّه من خلال الرياضيات يتمّ قياس العديد من الأمور المختلفة كالمسافة بين الكواكب وحجم الذرّات وغيرها،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ٨/ ٤١٩، مادة: (بلغ).

(٢) سعد الدين التفتازاني، مختصر المعاني/ ٢٠.

وهي التي لا يمكن لنا قياسها بشكلٍ مباشر، وإنّما يتم قياسها نسبةً إلى علاقتها مع الكميات.

ومن أحدث تعريفات الرياضيات أنّه العلم الذي يدرس الكمّ والعدد، وهي الأمور القابلة للقياس، والقابلة للزيادة والنقصان؛ ولذلك فهو علم يدرس القياس والحساب والهندسة والبنية والفراغ والأبعاد والتغيّر، وما زال بوسعنا القول: إنّ تعريف الرياضيات سيظلّ مبهمًا ومتغيّرًا مع تقدم الزمن؛ لدخول المزيد من العلوم وانضمامها تحت مظلّة ما يُسمّى بـ (الرياضيات).

٣ـ موضوع الرياضيات:

لكلّ علم من العلوم موضوع يتناوله: فموضوع العقيدة هو الله والإيمان، وما يتفرّع منه، وموضوع الأصول هو مصادر الاستنباط، وموضوع الفقه هو الحكم الشرعي المتعلق بالمكلّف، وموضوع النحو هو الكلمة والجملة، وموضوع الرياضيات هو القياس والكمّ والمقدار، وموضوع الطبّ هو الصحة والمرض[١].

٤ـ فروع الرياضيات:

للرياضيات ثلاثة فروع وحقول أساسية هي:

أ. **الحساب:** ويعنى بالعدد.

ب . **الهندسة:** وتعنى بخواصّ المقادير، كالأشكال من مربعات ومثلثات ودوائر ومستطيلات، وخطوط، وتوازٍ، وتقاطع، وغير ذلك.

ج . **الجبر:** ويعنى بالكسور والمعادلات والمتراجحات ونسبة العلاقات بين الأعداد.

٥ـ العلاقة بين البلاغة والرياضيات:

بعد أن أخذنا جولة سريعة حول أسئلة الماهية والتقسيم، يمكننا أن نختصر العلاقة بين البلاغة والرياضيات بالقول: إنّها علاقة تكاملية تبادلية، فكلٌّ منهما يكمل الآخر، ويستفيد منه، ويفيده:

فالرياضيات قد يذكر عددًا أو شكلًا هندسيًا أو نسبة جبرية، ويسجِّل مفهومها العلمي الرياضي التجريدي فقط، والبلاغة تأتي بعد ذلك لتضعنا على دلالة ذلك العدد والشكل والنسبة، ومعناه من ناحيتي الوصول والإيصال، أي وظيفتيه: البلاغية والإبلاغية، فتتحدّث لنا عن دلالة ذكر العدد، ودلالة إبهامه، ودلالة تقديمه، ودلالة تأخيره، ودلالة تعريفه، ودلالة تنكيره، ودلالة استخدام المرسِل الباثّ (المبدع/ المتكلم) للرسوم الهندسية في كلامه وكتابته، والنسب الجبرية في حديثه وتدوينه، وما غرض المرسِل من ذلك، هل غرضه – مثلًا –الحصر أم التكثير أم التقليل أم التشويق أم غير ذلك؟

ومن ثمّ لكي نلج نقطة التقاطع والصلة بين البلاغة والرياضيات، سنعرض نصوصًا قرآنية وحديثية ذكرت أمورًا تتصل بالرضيات

---

(١) ومن قديم قال أرسطو: "كلّ واحد من الفنون إنّما هو قادر على أن يعلّم ويقنع في مجال موضوعه الخاصّ: فالطبّ – مثلاً – يتناول الصحة والمرض، والهندسة تتناول خواصّ المقادير، والحساب يعنى بالعدد" [أرسطو طاليس، فنّ الخطابة، ترجمة: الدكتور عبد الرحمن بدوي/ ٢٩].

(كالحساب، والهندسة، والجبر)، ونسأل البلاغة عن الغاية والغرض من ذلك، والدلالة التي صبّها ذلك في الجملة والأسلوب.

وسنقسّم بحث (الصلة بين البلاغة والرياضيات) إلى ثلاثة أقسام هي أقسام الرياضيات: الحساب، والهندسة، والجبر.

أولًا: صلة البلاغة بالحساب:

سنقف فيما يلي مع نصوص دينية: (قرآنية ونبوية) ذُكرت فيها الأعداد، وسنرى أنّ طريقة ذكرها تختلف من جملة إلى أخرى، ومن أسلوب إلى آخر؛ مما تشهده وتميّزه عين البلاغة بدقة وانتباه شديدين، وتسأل نفسها فيها – تأسيسًا على كون المرسِل عاقلاً وقاصداً وغائياً غير عابث – عن غرض المرسِل من ذلك، لتحاول الإجابة عن الأسئلة التالية التي تضجّ داخل صدرها:

– ما الغرض من ذكره العدد صريحًا واضحًا؟

– وما الغرض من ذكره العدد مبهمًا؟

. وما الغاية من حذفه؟

. ولماذا قدّم العدد هنا؟

. ولماذا أخّر العدد هناك؟

. ولماذا عرّف العدد هنا؟

. ولماذا نكّره هناك؟

١ـ ذكر العدد:

في بعض الصور القرآنية والروائية نشهد ذكر العدد صريحًا واضحًا، دون إبهام، أو حذف، ويأتي ذلك قاصدًا تحقيق غايات بلاغية هامة، منها:

الغرض الأول: الحصر:

فالنصّ الديني يذكر في بعض موارده العدد، ويقصد بذلك الحصر والتعيين العددي، كالحصر الزمني التاريخي، والحصر التشريعي الفقهي:

أـ الحصر الزمني التاريخي:

يستخدم النصّ الديني العدد ليحدّد لنا المقادير التاريخية الزمنية.

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١).

فذكرُ العدد (سبعة) للسماوات والأرضين، ليس للتكثير، وإنّما هو للعدّ والحصر، فالله – سبحانه وتعالى – خلق سبع سماوات وسبع أرضين عدداً.

ويقول تعالى عن مدة خلق السماوات والأرض: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

فالآية توضّح أنّ خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام، وإن كنّا لا نعلم أهي ستة أيام من أيامنا الأرضية التي تشتمل على أربع وعشرين ساعة، أم هي أيام من أيام الفلك

---

(١) سورة الطلاق، الآية ١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٤.

وحركة الضوء (الأيام الفلكية)، أم هو تعبير عن حقب زمنية متتابعة دون تقدير زمني: أرضي أو فلكي.

وفي آيات أخرى يوضّح القرآن الكريم توزيع هذه الأيام الستة، فيقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١).

والبعض يرى أنّ هذه الآية المباركة تناقض الآية السابقة التي تقول بأنّ خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام؛ لأنّه يرى أنّ حاصل جمع الأيام في هذه الآيات ثمانية، وليس ستة:

. ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

فـ ٢+ ٤ + ٢ = ٨.

بينما الصحيح أنّ هذه الآيات لا تتناقض مع تلك التي حدّدت المدة في ستة أيام، فقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، يذكر يومين، وقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ هو على نحو الإعادة والزيادة، لا الزيادة فقط، فخلق الأرض – وحدها – كان في يومين، أما خلقها مع أقواتها، فكان في أربعة أيام، أي أنّ خلق الأقوات – وحدها – كان – هو الآخر – في يومين.

وفي هذا يقول الفخر الرازي: "قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ (٢) مفسّر بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾، بمعنى تقدير الأرض في يومين، وتقدير الأقوات في يومين آخرين، كما يقول القائل: (من الكوفة إلى المدينة عشرون يومًا، وإلى مكة ثلاثون يومًا)، يريد أنّ جميع ذلك هو هذا القدر، ثم استوى إلى السماء في يومين آخرين، ومجموع ذلك ستة أيام على ما قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾"(٣).

ويستثمر الرسول الأكرم – صلى الله عليه وسلم – العدد؛ ليخبرنا بشيء من عالم الغيب السحيق، ويطلعنا على كوة من عالمه المستور، فيقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء"(٤).

فعبارة (خمسين ألف سنة) تدلّل على علم الله الأزلي، ومشيئته النافذة في الأمور، وقضائه

---

(١) سورة فصّلت، الآية . ٩. ١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٣) فخر الدين الرازي، تفسير الرازي ٢/ ١٥٥، (المسألة الثالثة: قول الملحدة بأنّ خلق الأرض قبل خلق السماء).

(٤) صحيح مسلم ٨/ ٥١، (باب كلّ شيء بقدر).

الذي لا يُردّ، ولا يُستبدل، فمنذ ذلك الزمن الموغل في القدم قبل خلق السماوات والأرض كتب الله الأقدار، ثم جرت الأمور وفق ما قضى الله وقدّر.

ويقول الله – سبحانه وتعالى –: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١).

وفي هذه الآية المباركة ورد العدد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، ويُراد به تحديد المدة التي لبثها نبي الله نوح في قومه، ولا يُراد من العدد التكثير، بل هو للعدّ الزمني والتقدير التاريخي.

وفي آية أخرى يقول – جلّ من قائل – عن نبيّه يونس بن متى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(٢).

وهذه الآية الشريفة تتكلم عن عودة يونس إلى قومه في (نينوى)، وإيمانهم به، وتحدّد عددهم بأنّه مئة ألف شخص، بل يزيدون قليلاً، ومن ثم فهي تشير إلى إحصاء عددي، والعدد فيها يدلّ على التحديد.

ويقول تعالى عن العزير: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آَيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

فالمقصود من ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، هو مئة عام عددي، أي قرن من الزمان، وليس التكثير، وهو برهان على عظمة قدرة الله الذي أمات عزيرًا مئة عام دون أن يبلى جسده، مع أنّ حماره بلي، والطعام الذي من عادته البلى والفساد ظلّ على حاله ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، أي حصل خلاف الجاري في العادة والطبيعة، ثم أراه الله عملية إعادة الخلق في حماره.

ويحدّد النبي الأكرم – صلى الله عليه وسلم – عدد درجات الجنّة، فيقول: "الجنّة مئة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض"(٤).

وهذا الحديث الشريف يعطي دلالتين: أولاهما: عدد درجات الجنّة، والثانية: المسافة البالغة بين كلّ درجة وأخرى، وهي التي يعبّر عنها الحديث بأنّ "ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض"!!

وفي حديث آخر يوضّح لنا النبي – صلى الله عليه وسلم – عبر دلالة العدد سعة الدرجة الواحدة من تلك الدرجات المئة، فيقول: "الجنّة مئة درجة، لو أنّ العالمين اجتمعوا في إحداهنّ لوسعتهم"(٥)، فمن سعة كرم الله العميم أنّ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

(٢) الصافات، الآية ١٤٧. ١٤٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٤) كنز العمال ١٤/ ٤٥١، باب (ذكر الجنّة وصفتها)، ح ٣٩٢٢١.

(٥) كنز العمال ١٤/ ٤٥١، باب (ذكر الجنّة وصفتها)، ح ٣٩٢٢٢.

الدرجة الواحدة من درجات الجنّة المئة تسع جميع العالمين (البشر): من مضى منهم، ومن حضر، ومن سيأتي، ومع ذلك وهب عباده مئة درجة، حتى يثق المؤمن بجزيل عطاء الله، ولا يصغي لظنون وهواجس صغر العطاء الإلهي والتزاحم في الجنان الخالدات.

ومن سعة الدرجة في الجنّة إلى النوال الربّاني الغدق الذي يهبه الله لأدنى عباده في الجنّة، يستخدم النبي الأكرم – صلى الله عليه وسلم – العدد لبيان ذاك الفضل العميم، فيقول: "إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة، له ثمانون ألف خادم، واثنان وسبعون زوجة، ويُنصب له قبة من لؤلؤ وياقوت وزبرجد كما بين الجابية وصنعاء"[١].

وهكذا استثمر النبي – صلى الله عليه وسلم – العدد للتدرّج في بيان عدد درجات الجنّة، ثم في سعة الدرجة الواحدة، ثم في العطاء الذي يناله المؤمن الواحد.

وعلى الطرف المقابل للجنّة تكمن النار التي يستخدم القرآن العدد – أيضاً – لبيان أبوابها وعمقها، فيقول عن عدد أبوابها: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [٢].

ويؤكد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذلك، ويقول: "الجنّة لها ثمانية أبواب، والنّار لها سبعة أبواب"[٣]، فمن كرم الله أنّ عدد أبواب الجنّة أكثر من عدد أبواب النار، مع كثرة العصاة والمذنبين: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٤]،﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٥]؛ حتى يرغّب المؤمنين في الجنّة، ويخلق لديهم عين الرجاء والتطلع والأمل نحو تلك الرحمة البالغة.

ولئلا يفرط بالإنسان الرجاء، ويجعله يتجرّأ على حدود الله يستمدّ النبي – صلى الله عليه وسلم – من دلالة العدد ما يجعل المؤمن يوازن بين حبلي الرجاء والخوف، فلا يستبد به الرجاء ليخوض في غمار مستنقع العصيان والموبقات، ولا يقعد به الخوف عن التطلع لرحمة الله الواسعة، ومن ثم يحذّره بعظمة عمق النار المهول، ويكشف له حقيقة من عالم الغيب الكامن وراء الحجب، فيقول: "لو أنّ حجرًا مثل سبع حلقات ألقي في شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفًا لا يبلغ قعرها"[٦].

وفي هذا الحديث الذي تذعر له الروح يستمدّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – الكثير من دلالات العدد؛ ليبين الغور الهائل للنار: فالحجر الضخم المكوّن من سبع حلقات لو هوى من شفير جهنم نحو قعرها سبعين سنة متواصلة، لما بلغ قعرها!!

ب ـ الحصر التشريعي الفقهي:

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٧٦، (مسند أبي سعيد الخدري).

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٤.

(٣) كنز العمال ١٤/ ٤٥١، باب (ذكر الجنّة وصفتها)، ح ٣٩٢٢٠.

(٤) سورة هود، الآية ١٧.

(٥) سورة يوسف، الآية ٣٨.

(٦) كنز العمال ١٤/ ٤٢٣، باب (ذكر النّار وصفتها)، ح ٣٩٤٨٥.

ومثلما يستخدم النصّ الديني العدد؛ ليحدّد لنا المقادير التاريخية الزمنية، يستخدمه؛ لبيّن لنا التحديد التشريعي الفقهي.

يقول الله تعالى في آية الدين: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾[١].

ففي هذا الآية المباركة يسنّ الله حكمًا تشريعيًا هو: أنّ الشهود على القضايا المالية (كالدَّين) أمران: إما شاهدان، أو رجل وامرأتان، وهو تحديد حصري، بمعنى أنّ هذا العدد كافٍ لإثبات الدَّين على مستحقّه، ولا يحتاج إلى عدد أكبر من ذلك، بينما يقرّر لإثبات فعل الفاحشة – الذي هو أخطر بكثير من القضايا المالية – أربعة شهود: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[٢].

ومن التحديد العددي في البشر إلى التحديد العددي في الشهور، يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾[٣].

فالحكم الشرعي الذي تتمّ به عدة الطلاق هو ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، و(القرء) من ألفاظ الأضداد، يُطلق على الحيض، وعلى الطهر منه، وفي ذلك يقول الزهري: "وقال معمّر: يقال: (أقرأت المرأة): إذا دنا حيضها، و(أقرأت): إذا دنا طهرها"[٤]، والثلاثة قروء تساوي ثلاثة أشهر.

وإذا كان الشرع الحنيف قد اشترط لعدة المرأة المطلقة ثلاثة قروء، فقد اشترط لعدة المرأة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام، وقد قال تعالى عن ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٥].

وكان من الأحكام الشرعية في المواجهة بين المسلمين والمشركين أن يثبت المسلم الواحد في قبال العشرة، ثم خفّف الله ذلك بأن يثبت الواحد من المسلمين في مقابل الاثنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٦].

والعدد . هنا . ليس حلية جمالية، أو نقشاً تزويقياً، أو دلالة على التكثير أو التقليل، بل دلالة على التحديد والحصر، فقد كان يجب على المسلمين أن يثبتوا في وجه الكفار ولو كان الكفار عشرة أضعاف المسلمين، ويترتب على ذلك الحكم الشرعي حرمة الفرار من

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.
(٢) سورة النساء، الآية ١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
(٤) صحيح البخاري ٦/ ١٨٣، (باب اللعان).
(٥) سورة البقرة، الآية ٢٣٤.
(٦) سورة الأنفال، الآية ٦٦.

الزحف، ثم نسخه الله بلزوم ثبات المسلم الواحد في وجه كافرَين اثنين، أي ثبات المسلمين في وجه ضعفهم من الكفار، وحرمة فرارهم من الزحف حينئذ.

ومن الأحكام الشرعية التي صدحت بها مهجة النبي – صلى الله عليه وسلم – ما نقله عنه أبو سعيد الخدري، أنّه قال: "ولا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد الأقصى"[1].

فهنا حكم حصري بالمساجد التي يُسافر إليها، وتُشدّ لها الرحال، وهي: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، وقد دلّت الجملة المسيّجة بالحصر بـ (لا) و(إلا)، مقرونة بالعدد (ثلاثة)، مع تسمية تلك الثلاثة بأسمائها؛ دلت على الحصر والتحديد.

الغرض الثاني: التكثير:

وقد يستقدم النصّ الديني العدد، لا لأجل الحصر والتحديد، بل لأجل التكثير والمبالغة في الكثرة.

وفي النصّ الديني – تبعًا للاستعمال اللغوي – ترد الكثير من الأعداد للتكثير والمبالغة، منها:

أ. العشرة:

فالعدد عشرة قد يُذكر، ولا يراد به التحديد، بل التكثير، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [2].

فالله لا يضاعف الحسنات إلى عشرة أضعاف فقط، بل إلى سبع مئة ضعف، وأكثر، ولذلك قال في آيات أخرى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [3].

وفضلاً عن هذا ورد في الروايات الشريفة المضاعفة لمليوني حسنة وأكثر.

يقول ابن كثير: "وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ يحثّ تعالى عباده على الانفاق في سبيل الله، وقد كرّر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أنّه يقول تعالى: "من يقرض غير عديم ولا ظلوم"، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإنّ الله – عزّ وجلّ – ليريد منا القرض؟!، قال: نعم.. يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك – يا رسول الله –، قال: فناوله يده، قال: فإنّي قد أقرضتُ ربّي – عزّ وجلّ – حائطي، قال: وحائط له فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أمّ الدحداح، قالت: لبيك، قال:

([1]) صحيح البخاري ٢/ ٢٢٠، (باب حرم المدينة).

([2]) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

([3]) سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

اخرجي؛ فقد أقرضته ربّي – عزّ وجلّ –، ....، وقوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١)، الآية، وسيأتي الكلام عليها، وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا مبارك بن فضلة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي قال: أتيت أبا هريرة فقلتُ له: إنّه بلغني أنّك تقول: إنّ الحسنة تُضاعف ألف ألف حسنة قال: وما عجبك من ذلك؟!، لقد سمعته من النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: إنّ الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة"(٢).

ومن استعمال العدد عشرة للتكثير قول أبي ذرّ الغفاري: "كنتُ أعزُب عن الماء، ومعي أهلي، فتصيبني الجنابة، فأصلي بغير طهور، فأتيتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بنصف النهار، وهو في رهط من أصحابه، وهو في ظلّ المسجد، فقال: أبو ذرّ؟، فقلتُ: نعم..، هلكتُ يا رسول الله، قال: وما أهلكك؟، قلتُ: إنّي كنتُ أعزب عن الماء ومعي أهلي؛ فتصيبني الجنابة؛ فأصلي بغير طهور، فأمر لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بماء، فجاءت به جارية سوداء بعسّ يتخضخض ما هو بملآن، فتسترتُ إلى بعيري، فاغتسلتُ، ثم جئتُ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: يا أبا ذرّ، إنّ الصعيد الطيّب طهور، وإن لم تجد الماء إلى عشر سنين، فإذا وجدتَ الماء فأمسّه جلدك"(٣).

والمقصود من عبارة: "إنّ الصعيد الطيّب طهور، وإن لم تجد الماء إلى عشر سنين"، ليس تحديد العشر السنين، بمعنى أنّه لا يكفي لما بعدها، بل المقصود الكثرة: فالتيمم يكفي ولو فقد الإنسان الماء عشر سنين أو أكثر، ويستمرّ حكمه ما دام العذر باقياً، أي أنّ التيمم يكفي طوال مدة فقدان الماء مهما طالت وامتدت.

ب ـ السبعون:

وكما يستخدم الدين العدد عشرة للتكثير والمبالغة، يستخدم العدد (سبعين)، وهو أكثر انتشارًا من العشرة، وقد ورد كثيرًا في النصّ القرآني والنبوي، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٤).

فليس المقصود أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – إن استغفر الله لهم عدد سبعين مرة محددة فلن يغفر الله لهم، لكنّه لو استغفر أكثر

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) ١/ ٣٠٦.

(٣) سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود ١/ ٨٤، (باب الجُنب يتيمّم)، ح ٣٣٣.

(٤) سورة التوبة، الآية ٧. ٨٠.

من ذلك فسيغفر الله لهم، بل المقصود أنّ الله لن يغفر لهم مهما كثر العدد وكبر.

وفي ذلك يقول أبو بكر الجصاص: "فيه إخبار بأنّ استغفار النبي – صلى الله عليه وسلم – لهم لا يوجب لهم المغفرة، ثم قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ذكر السبعين على وجه المبالغة في اليأس من المغفرة"(١).

ويقول البغوي: "وذكرُ السبعين في العدد؛ للمبالغة في اليأس على طمع المغفرة"(٢).

ويقول النسفي: "والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم؛ للتكثير، وليس على التحديد والغاية؛ إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم؛ لأنّهم كفّار، والله لا يغفر لمن كفر به، والمعنى: (وإن بالغتَ في الاستغفار فلن يغفر الله لهم)، وقد وردت الأخبار بذكر السبعين، وكلّها تدلّ على الكثرة، لا على التحديد والغاية، ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد أنّ العدد قليل وكثير، فالقليل ما دون الثلاث، والكثير الثلاث فما فوقها، وأدنى الكثير الثلاث، وليس لأقصاه غاية، والعدد – أيضًا – نوعان: شفع ووتر، وأول الأشفاع اثنان، وأول الأوتار ثلاثة، والواحد ليس بعدد، والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين؛ لأنّ فيها أوتارًا ثلاثة، وأشفاعًا ثلاثة، والعشرة كمال الحساب؛ لأنّ ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة، كقولك: اثنا عشر وثلاثة عشر إلى عشرين، والعشرون تكرير العشرة مرّتين، والثلاثون تكريرها ثلاثة مرات، وكذلك إلى مئة، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع، والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه؛ فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كلّ وجه، ولا غاية لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى، والله أعلم"(٣).

وقد ورد عن أبي هريرة، أنّه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "الرّبا سبعون حُوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمّه"(٤).

و"(الحُوب) . بالضم –: الإثم، و(الحابّ) مثله"(٥)، فالحديث آتٍ في سياق تبشيع الرّبا، وتعظيمه، وتكثير خطره، وأنّه كسبعين حُوبًا (إثمًا)، أيسرها وأسهلها مهول عظيم وهو أن ينكح الرجل أمه!!

ج ـ التسعة والتسعون:

ومن الألفاظ التي استخدمتها نصوص الدين الحنيف؛ للدلالة على التكثير والمبالغة: (تسعة وتسعون) و(تسع وتسعون).

وقد ورد عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن أبيه، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنّه قال: "مثلُ ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون

(١) الجصّاص، أحكام القرآن ٣/ ١٨٥.

(٢) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) ٢/ ٣١٥.

(٣) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي) ٢/ ١٠١.

(٤) محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة ٢/ ٧٦٤، (باب التغليظ في الرّبا)، ح ٢٢٧٤.

(٥) الجوهري، الصحاح ١/ ١١٦، مادة: (حوب).

منيّة، إن أخطأته المنايا وقع في الهرم حتى يموت"[١].

كما ورد عن أبي هريرة، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنّه قال: "من قال: (لا حول ولا قوة الا بالله) كان دواء من تسعة وتسعين داء، أيسرها الهمّ"[٢]

وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا"[٣].

د ـ المئة:

ومن الألفاظ الواردة في النصّ الديني للدلالة على التكثير والمبالغة لفظ (المئة)، وفي حديث أبي أيمن أنّه قال: "دخلتُ على عائشة فقلتُ: كنتُ لعتبة بن أبي لهب ومات، وورثني بنوه، وإنّهم باعوني من ابن أبي عمرو، فأعتقني ابن أبي عمرو، واشترط بنو عتبة الولاء، فقالت: دخلتْ بريرة – وهي مكاتبة – فقالت: اشتريني واعتقيني، قالت: نعم..، قالت: لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي، فقالت: لا حاجة لي بذلك، فسمع بذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – أو بلغه، فذكر ذلك لعائشة، فذكرت عائشة ما قالت لها، فقال: اشتريها وأعتقيها، ودعيهم يشترطون ما شاؤوا، فاشترتها عائشة فأعتقتها، واشترط أهلها الولاء، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: الولاء لمن أعتق، وإن اشترطوا مئة شرط"[٤].

أي أنّ الولاء لمن أعتق مهما كثرت الشروط التي اشترطها، حتى لو بلغت مئة أو أكثر.

كما ورد عن يحيى بن عروة بن الزبير أنّه سمع عروة يقول: "قالت عائشة: سأل أناسٌ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الكهّان، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ليسوا بشيء، قالوا: يا رسول الله، فإنّهم يحدِّثون أحيانًا بالشيء يكون حقًّا، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنّي، فيقرّها في أذن وليه قرّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة"[٥].

فالجنّ الذي يختطف السمع من السماء يوصل الكلمة التي اختطفها إلى أتباعه من الكهّان والسحرة، فيقوم هؤلاء بغمسها في مئة كذبة وأكثر، ويسوّقونها على من يصدقهم، وقد أدخلوا مراداتهم ومبتغياتهم مع تلك الخطفة الصادقة، فيكون ما يزجُّونه من كذب صراح أضعافاً مضاعفة للحقّ المشوب به!!

هـ ـ السبع مئة:

ومن الألفاظ العددية الواردة في النصّ الديني للتكثير والمبالغة المركب الإضافي (سبع مئة)، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ٢٠٩، (باب ما جاء في القضاء)، ٢٢٤١

(٢) الحاكم النيسابوري، مستدرك الصحيحين ١/ ٥٤٢، باب (من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله).

(٣) صحيح البخاري ٧/ ٧٥، (كتاب الأدب).

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨، (كتاب الهبة، وفضلها، والتحريض عليها).

(٥) صحيح البخاري ٧/ ١٢٢، (كتاب الأدب).

كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [1].

ومنه ما رواه أنس بن مالك عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "أذن لي أن أحدّث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير مسيرة سبع مئة عام، يقول ذلك الملك: (سبحانك حيث كنت)"[2].

وقد تحدّثنا عن دلالة العدد (سبع مئة) ضمن حديثنا عن العدد (عشرة)، ونقلنا مجموعة من الروايات الشريفة الدالة على تكثير الله لعدد الحسنات أكثر من ذلك بكثير.

و ـ الألف:

ومن الألفاظ التي استعملتها اللغة والنصّ الديني للدلالة على التكثير والمبالغة: (الألف)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

الغرض الثالث: **التقليل**:

وكما يستعمل النصّ الديني العدد للتكثير والمبالغة، يستخدمه – ضمن سياقات أخرى – للتقليل، وهو أمر تواشجت فيه الآيات الكريمة مع الأحاديث الشريفة:

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[4].

والآية ورادة في سياق الحديث عن أهل الكهف ونومهم الطويل الذي امتدّ ٣٠٩ سنوات: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [5]، فقد بعثهم الله بعد رقادهم العميق هذا، فتساءلوا بينهم: كم لبثتم؟!، ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فهم يعتقدون أنّ نومتهم تلك لم تستغرق أكثر من يوم أو بعض يوم؛ للتقليل من المدة المظنونة المتوقعة، ولا يخطر ببالهم أنّهم ناموا ثلاثة قرون وأكثر، مع أنّ أظافرهم الطويلة، وشعورهم الكثيفة، توحي بأنّ نومهم امتد لأكثر من يوم أو بعض يوم، لكنّ باقي سياقات الآية تدلّ على ظنّهم التقليل، فقد طلبوا من أحدهم أن يعود إلى المدينة بأوراقهم النقدية ليشتري لهم طعاماً، ويتلطف في شكله، ولا يشعرن بهم أحداً؛ لتوقعهم بقاء حاكمهم الظالم على سدة كرسيه، ولا يعلمون أنّه مات من سنين طوال، وخلفه كثيرون ماتوا!!

وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [6].

([1]) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

([2]) كنز العمال ٦/ ١٣٦، باب (خلق الملائكة . عليهم السلام .)، ح ١٥١٥٥.

([3]) سورة البقرة، الآية ٩٦.

([4]) سورة الكهف، الآية ١٩.

([5]) سورة الكهف، الآية ٢٥.

([6]) سورة طه، الآية ١٠٢. ١٠٣.

فالمجرمون يرون أنّ حياتهم التي خلعوها خلفهم في الدنيا لم تكن سوى عشر ليال فقط، هي حفنة تراب من أيام نزرة تلاشت وتقضّت كسحابة صيف؛ إمعاناً في التعبير عن التناهي في القلّة.

وفي الحديث عن ابن عمر، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنّه قال: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان"(١).

أي أنّ الخلافة في قريش، ولو بقي منهم عدد قليل جداً، تختزله الرواية في (اثنين)؛ تعبيراً عن كون الخلافة فيهم مهما قلّ عددهم.

وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمر: أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "ما حقّ امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده"(٢).

وهو حثّ نبوي راسخ على لزوم كتابة المسلم لوصيته، وأن لا يترك ذلك حتى لأقلّ مدة، ولو كانت مجرّد ليلتين فحسب، بمعنى لزوم تعجيله كتابتها، وعدم التسويف والتأخير ولو لمدة قصيرة.

٢ـ إبهام العدد:

وفي بعض النصوص الدينية يأتي استثمار لشكل آخر من أشكال استثمار العدد، غير ذكر العدد صريحاً واضحاً للغايات السابقة التي ذكرناها من تكثير وتقليل وغير ذلك، وهو شكل الإبهام والغموض، وذلك لتحقيق غايات وأغراض معيّنة.

ومن ذلك قوله تعالى عن نبيّه موسى – عليه السلام –: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٣).

فهل يجهل المرسِل هنا – وهو الله – المدة التي لبثها موسى في مدين؟!!

كلا..، فالمرسِل هو الله العليم بكلّ شيء، والذي لا يعزب عن علمه مقدار ذرة في الأرض، ولا في السماء، لا سيما وأنّه قد ذكر ذلك في موضع آخر من كتابه المجيد، فقال على لسان نبيّه شعيب لما وفد عليه موسى في مدين: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٤).

فالمدة التي لبثها موسى في مدين كانت بين ثمان إلى عشر سنوات، والكثيرون يميلون إلى أنّها كانت عشراً؛ لأنّ من طبع الأنبياء إجزال المثوبة، والكرم في الجزاء، فنفّذ أطول الأجلين، وهو العشر.

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٥٥، (باب المناقب)

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٨٥، (كتاب الوصايا).

(٣) سورة طه، الآية ٤٠.

(٤) سورة القصص، الآية ٢٧. ٢٨.

ولكنّ التعبير الربّاني: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، يُراد من إبهامه: التكثير من طرف، وبيان الكرم الإلهي والمنة الإلهية عليه من طرف آخر، ومن ثم كان المورد أدعى للإبهام.

ومثل هذا الإبهام الوارد في قصة موسى ورد في قصة نبي الله يوسف مع صاحبي السجن: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [1].

فالله يعلم كم لبث نبيّه يوسف في السجن بعد ذلك النسيان، لكنّه لم يذكره؛ لبيان وخامة أثر ذلك النسيان، وكيف أدى إلى أن يبقى يوسف بعدها في السجن أمداً طويلاً: لم يكن أياماً، ولا أسابيع، ولا شهوراً، بل امتدّ لسنين!!

وقد "روى معمّر عن قتادة، قال: يعني أنّه لبث في السجن سبع سنين.

وقال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

قال الفراء: ذكروا أنّه لبث سبعًا بعد خمس سنين، بعد قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، قال: والبضع: ما دون العشر.

قال الأخفش: البضع من واحد إلى عشرة.

وقال قتادة: البضع يكون بين الثلاث، والتسع، والعشر، وهو قول الأصمعي.

قال العتبي: قال أبو عبيدة: ليس البضع العقد، ولا نصف العقد، نذهب إلى أنّه من الواحد إلى الأربعة.

وقال قطرب: البضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

قال أبو جعفر: قيل أصحّهما قول الأصمعي؛ لأنّ داود بن هند روى عن الشعبي أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قال لأبي بكر حين خاطر قريشًا في غلبة الروم فارس، فمضى ست سنين، وقال أبو بكر: ﴿سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: كم البضع؟، فقال: ما بين الثلاث إلى التسع، فخاطرهم أبو بكر وزاد، فجاء الخبر بعد ذلك أنّ الروم قد غلبت فارس"[2].

كما ورد استعمال أسلوب الإبهام في العدد مع أصحاب الكهف الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [3].

فقد عبّرت الآية الأخيرة هنا عنهم، وقالت: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، فأبهمت العدد ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، وهذه الآية وردت في سورة الكهف التي أزالت في موضع آخر الستار عن سرّ لبثهم في الكهف، وأخبرت أنّه دام ثلاث مئة وتسع سنوات: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [4]، ولكنّ لكلّ موضع سرّه وجماله: فمرّة تزيل الآيات السرّ عن جماله؛ لتحقق الصدمة والمفاجأة بذكر العدد،

([1]) سورة يوسف، الآية ٤٢.

([2]) أبو جعفر النحّاس، معاني القرآن ٣/ ٤٣١.

([3]) سورة الكهف، الآية ٩. ١١.

([4]) سورة الكهف، الآية ٢٥.

وأخرى تسدل الستار عليه؛ لتخلق حالة من الغموض الممتع، والسرّ اللذيذ.

وأسلوب الإبهام الذي استعمله القرآن الكرم مع النبي موسى، والنبي يوسف، وأصحاب الكهف، امتدّت حلقات عقده النضيد حتى تصل إلى النبي الأكرم محمد – صلى الله عليه وسلم –، حيث يقول عنه القرآن المجيد: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١].

فالنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول هنا لمشركي مكة: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾، ويُبهم العدد؛ لعلمهم به من جهة، وأنّه كان أربعين عاماً قبل بعثته الشريفة، ولبيان طول تلك المدة التي عاشها بينهم قبل أن يصدع بالوحي، ولم يعرفوا منه فيها كذباً، ولا شططاً، بل كانوا يلقبونه: (الصادق الأمين).

كما منح القرآن الكريم الإبهام العددي للقيمة الزمنية الغيبية التنبئية التي سينتصر فيها الروم على الفرس، بعد هزمتهم الساحقة في عقر دارهم، والتي سجلتها سورة الروم، فقالت: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢].

ومثلما استخدم القرآن الكريم الإبهام في العدد استخدمته السنة النبوية المطهرة، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان"[٣]، وفي رواية أخرى أنّه – صلى الله عليه وسلم – قال: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول (لا إله إلا الله)، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[٤].

وكلمة (بضع) في عبارة (الإيمان بضع وستون)، أو (الإيمان بضع وسبعون) جاءت مبهمة؛ لعدم تحديد العدد بصرامة، فهي قد تزيد قليلاً، وقد تنقص قليلاً، بما تحويه وتسعه كلمة (بضع).

٣ـ تقديم العدد:

رأينا فيما سبق صور الاستفادة من ذكر العدد: سواء بذكره صريحاً واضحاً، أم مبهماً غامضاً، والآن نريد أن نقف على صور الاستفادة من العدد من حيث التقديم والتأخير، فالنصّ الديني في استقدامه للعدد: أحياناً يقدّمه في الجملة؛ لغايات وأغراض بلاغية دلالية، وأحياناً أخرى يؤخره في الجملة؛ لغايات ودلالات أخرى.

---

(١) سورة يونس، الآية ١٥. ١٦.

(٢) سورة الروم، الآية ١– ٦.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٨، (كتاب الإيمان).

(٤) صحيح مسلم ١/ ٤٦، (باب شعب الإيمان).

ومن أمثلة تقديم العدد ما رواه عامر الشعبي، عن أبي بردة، عن أبيه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "ثلاثة لهم أجران:

- رجل من أهل الكتاب: آمن بنبيّه، وآمن بمحمد – صلى الله عليه وسلم –.

- والعبد المملوك: إذا أدى حقّ الله تعالى، وحقّ مواليه.

- ورجل كانت عنده أمة، فأدّبها، فأحسن تأديبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها، فتزوجها، فله أجران، ثم قال عامر [الشعبي]: أعطيناكها بغير شيء، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة"(١).

فالعدد – هنا – مقدّم؛ للتشويق، فمن يسمع: "ثلاثة لهم أجران" تتطلع نفسه ولهاً شوقاً؛ للتعرّف على هؤلاء الأصناف الثلاثة.

ومثله ما ورد عن أبي هريرة، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربّه، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل طلبته ذات منصب وجمال، فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا، ففاضت عيناه"(٢).

فقد قُدِّم العدد (سبعة)؛ للتشويق.

٤ـ تأخير العدد:

وكما يأتي العدد متقدّما في الكلام؛ لغايات بلاغية، يأتي متأخراً؛ لغايات بلاغية أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (٣)، فلم تقل الآية: (وثمانية يحملون عرش ربّك فوقهم يومئذ)، ولفظ ﴿ثَمَانِيَةٌ﴾ – هنا – فاعل مؤخر، والمركب الإضافي ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ مفعول به مقدّم، وكلمتا ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ متعلقات، أي أنّ الفاعل أخِّر عن المفعول به وعن المتعلقات معاً، وهذا يندرج في البلاغة في حقل (تقديم ما حقّه التأخير)، ومن غاياته الحصر، وبيان أهمية المتقدّم في الكلام، فالذي سيُحمل هو العرش لا شيء آخر، وسوف يُحمل فوق الناس، وفي ذلك اليوم العصيب، لا غير.

٥ـ تعريف العدد:

وضمن ثنائية (التعريف – والتنكير) يستخدم النصّ الديني العدد: معرَّفاً أحياناً، ومنكّراً أخرى؛ لتحقيق غايات مرجوة في الكلام.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

فعبارة ﴿الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ تحمل في طّياتها العدد ﴿الثَّلَاثَةِ﴾ المعرّف بـ (أل/

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٢، (كتاب العلم).

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٦٠، (باب وجوب صلاة الجماعة).

(٣) سورة الحاقة، الآية ١٧.

(٤) سورة التوبة، الآية ١١٨.

العهدية)، فالتعريف – هنا – يفيد العهد الذهني، فهؤلاء الثلاثة معروفون معهودون عند المسلمين، وتستحضر أذهان المسلمين أسماءهم، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، تخلّفوا عن غزوة تبوك[١].

ويقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢].

والمركب الوصفي ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ الذي أنيط به حرمة الحرب جاء معرّفاً بـ (أل العهدية)، مقترناً بصيغة (أفعُل) الدالة على جمع القلة من جموع التكسير؛ وذلك للدلالة على شهور قليلة معيّنة معهودة في أذهان المسلمين، بل ومعهودة في أذهان الجاهليين الذي كانوا يحرّمون فيها الحرب والقتال من لدن العصر الجاهلي – أيضاً –، وهي الأشهر الأربعة التالية: "شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من شهر ربيع الآخر"[٣].

وروى أبو واقد الليثي: أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا؛ فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض؛ فأعرض الله عنه"[٤].

وقد احتوى هذا الحديث الشريف على ذكر مجموعة أعداد: بعضها نكرة، هي: (ثلاثة نفر، اثنان، واحد) وبعضها معرفة، وهي: (أحدهما، الآخر، الثالث، الثلاثة، أحدهم)، والذي يهمنا فيها – هنا – هو المعرفة.

وقد جاء التعريف في هذه الأعداد على نحوين: تعريف بـ (أل): (الآخر، الثالث، الثلاثة)، وتعريف بالإضافة: (أحدهما، أحدهم)، فأما المعرّف بـ (أل)، فأداة التعريف فيه تفيد العهد الحضوري، أي (الآخر من الحاضرين، الثالث من الحاضرين، الثلاثة الحاضرون)، وأما المعرّف بالإضافة فقد اكتسب التعريف من الضمير (هما، هم)، ومعنى ذلك أنّه معروف واضح مشخّص.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ٢٨٣، باب (ذكر غزوة تبوك).

(٢) سورة التوبة، الآية ٥.

(٣) أبو السعود، تفسير أبي السعود ٤/ ٤١، (تفسير سورة التوبة).

وانظر – كذلك –: جلال الدين السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٣/ ٢١٣، (تفسير سورة التوبة).

(٤) صحيح البخاري ١/ ٢٤، (كتاب العلم).

وفي حديث آخر يرويه عبد الله بن عمرو قال: "ذكرتُ للنبي – صلى الله عليه وسلم –، الصوم:

. فقال: صم من كلّ عشرة أيام يومًا، ولك أجر تلك التسعة، فقلتُ: إنّي أقوى من ذلك!!

. قال: صم من كلّ تسعة أيام يومًا، ولك أجر تلك الثمانية، قلتُ: إنّي أقوى من ذلك!!

. قال: فصم من كلّ ثمانية أيام يومًا، ولك أجر تلك السبعة، قلتُ: إنّي أقوى من ذلك!!

. قال: فلم يزل حتى قال: صم يومًا، وأفطر يومًا"[1].

وهذا الحديث – كسابقه – يحمل أعداداً جاءت على صورة نكرة، وهي: (عشرة، تسعة، ثمانية، يوماً)، وأخرى جاءت على صورة المعرفة، وهي: (التسعة، الثمانية، السبعة)، ودلّت الأعداد المنكّرة على الإبهام، أي (صم من كلّ عشرة أيام يوماً واحداً)، و(صم من كلّ تسعة أيام يوماً واحداً)، و(صم من كلّ ثمانية أيام يوماً واحداً)، و(صم يوماً واحداً، وأفطر يوماً آخر يتلوه).

أما الأعداد المعرّفة فقد دلّت على التمام والكمال، أي (صم من كلّ عشرة أيام يومًا، ولك أجر الأيام التسعة الأخرى تامّة كاملة)، و(صم من كلّ تسعة أيام يومًا، ولك أجر الأيام الثمانية الأخرى تامّة كاملة)، و(صم من كلّ ثمانية أيام يومًا، ولك أجر الأيام السبعة الأخرى تامّة كاملة)، و(صم يومًا، وأفطر يومًا، ولك أجر اليوم الآخر تامّاً كاملاً).

وإفادة التمام والكمال هذه تدلّ – من بعد هذا – على أمرين: أولهما: مدى الكرم الإلهي العظيم السابغ الهتان، الذي يهب العبد ثواب الصيام لأيام كان فيها مفطراً، وثانيهما: عدم تشجيع الإسلام على الصوم المتواصل الدائم المستمر.

وفي حديث ينقله أبو هريرة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنّه قال: "طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة"[2].

وهذا الحديث الشريف يحوي جملتين، اشتملت كلّ منهما على عددين، هما: (طعام الاثنين كافي الثلاثة)، و(طعام الثلاثة كافي الأربعة)، وجميع الأعداد الأربعة فيها محلاة بـ (أل/ الاستغراقية)، أي أنّ (طعام كلّ اثنين، يكفي لكلّ ثلاثة)، و(طعام كلّ ثلاثة يكفي لكلّ أربعة)، ضمن ما يحثّ عليه الدين الحنيف من مشاركة واقتصاد.

٦ـ تنكير العدد:

استخدم النصّ الديني من كتاب وسنة العدد منكَّرًا؛ لغايات وأغراض دلالية وبلاغية، ومن موارد استخدامه قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ

---

(1) سنن النَّسائي ٤/ ٢١٣، باب (صوم يوم وإفطار يوم).

(2) صحيح البخاري ٦/ ٢٠٠، (كتاب الأطعمة).

فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [١].

وقد زاوجت هذه الآية الشريفة بين أعداد منكّرة، وأخرى معرّفة، فالأعداد المنكّرة فيها هي: (ثلاثة، خمسة، سبعة)، والأعداد المعرّفة فيها هي: (رابعهم، سادسهم، ثامنهم)، وجاءت النكرات فيها؛ لعدم توفر المعرفة اليقينية (العلم) لدى المتكلمين الذين يرجمون بالغيب ويتهافتون خلف رياح التخمين، واعتمادهم على الوهم والشك والظنّون.

وعن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبي – صلى الله عليه وآله . أنّه قال: "منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع"[٢].

وفي هذا الحديث الشريف جاء العدد (منهومان) نكرة؛ لإفادة التشويق، فمن يسمع: (منهومان لا يشبعان) تتلهّف نفسه شوقاً للمعرفة التفصيلية بهما، بعد هذا الإجمال، فيأتي نبع الحديث الشريف؛ ليسدّ ظمأه، ويخبره أنّهما "منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع".

وفي حديث آخر يرويه عبد الله عن بن عباس عن (الأحرف السبعة في القرآن): أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[٣].

فجاءت دلالة الحديث محمولة على سفينة المركب الإضافي (سبعة أحرف)، الذي أضيفت فيه النكرة إلى نكرة؛ لإفادة التخصيص، هذا عن فائدة الإضافة، أما الكلام عن فائدة (التنكير)، فقد تمّ الخلاف فيها على رأيين:

أ. التحديد:

فهناك من حمل المركب الإضافي (سبعة أحرف) على تحديد سبع قراءات لفظية، واستدلّ بما رواه عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنّه قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: "سمعتُ هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أقرأنيها، وكدتُ أن أعجِّل عليه، ثم أمهلتُه حتى انصرف، ثم لببتُه بردائه، فجئتُ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقلتُ: أنّى سمعتُ هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: أرسله، ثم قال له: اقرأ.. فقرأ، قال: هكذا أُنزلت، ثم قال لي: اقرأ.. فقرأتُ، فقال: هكذا أُنزلت؛ إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا منه ما تيسّر"[٤].

وهؤلاء يقبلون بقراءة القرآن على قراءات بشرط أن يكون ذلك مما يقبله الرسم العربي (رسم الكلمة)، فيما لا يحلّل حرامًا، لا يحرم حلالاً، قال ابن شهاب: "بلغني أنّ تلك السبعة

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٢.

(٢) كنز العمال ١٠/ ١٧٩، باب (الإكمال)، ح ٢٨٩٣٤.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٨٠، (كتاب بدء الخلق).

(٤) صحيح البخاري ٣/ ٩٠، باب (في الخصومات).

الأحرف إنّما هي في الأمر الذي يكون واحدًا لا يختلف في حلال ولا حرام"[1].

وهناك من حمله على تحديد سبعة جوانب مضمونية معنوية في النصّ القرآني، هي: الزجر، والأمر، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال، مستدِلاً بما رواه عبد الله ابن مسعود، عن النبي – صلى الله عليه وآله – قال: "كان الكتاب الأول نزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال؛ فأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عمّا نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [2]"[3].

ب ـ التكثير:

ورأى قسم آخر أنّ الغرض من التنكير في قوله – صلى الله عليه وسلم –: (سبعة أحرف)، ليس التحديد بأيّ من جانبيه: اللفظي والمضموني، وإنّما هو الإطلاق والشمول، ومن ثم آمن بالقراءات السبع، بل والقراءات العشر، وحتى القراءات الأربع عشرة، واعتبر ذلك دليل غنى في النصّ، وتوسعة على العباد.

(1) صحيح مسلم ٢/ ٢٠٢، (باب بيان أنّ القرآن على سبعة أحرف، وبيان معناه).

(2) سورة آل عمران، الآية ٧.

(3) مستدرك الصحيحين ٢/ ٢٨٩، (تفسير سورة آل عمران).

ثانياً: الهندسة:

تعنى الهندسة بالأشكال الهندسية من مربع ومستطيل ومثلث ودائرة ومعيّن ومنحرف أضلاع، وغير ذلك، كما تعنى بالخطوط كالخطّ المستقيم، والخطّ المنحني، والخطّ المتعرّج.

وقد استثمر النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا الفنّ الرياضي؛ لإيصال الفكرة الدينية إلى الناس، وتقريبها عبر الرسم الهندسي.

فمن ينعم النظر في بيان النبوة الكريم يتجلى لديه بوضوح أن بيانه ﷺ اشتمل – من غير تكلُّف ولا تعمُّل –على وسائل التصوير كافة، كي يتلاءم مع طبيعة الرسالة التي جاء ليبلغها إلى الخلق كافة.

فقد " كان الرسول – ﷺ– يستعين بكل الوسائل الممكنة المعينة على إثارة الانتباه، وتصوير المعاني المجردة في أشكال محسوسة، يسهل إدراكها وفهمها."[4]

وهذه الوسائل كثيرة ومتنوعة تأتي تلبية لحاجة المقام، وسياق الحديث.

ومن أبرز هذه الوسائل ما يأتي:

(١) اتخاذ الرسم الهندسي وسيلة من وسائل تصوير المعاني

هذا لون إبداعي مؤثر استخدمه البيان النبوي الخلّاق في تثبيت المعاني في أذهان المخاطبين، وكان يستخدم الرسول – ﷺ – في هذا اللون الإبداعي يده، أو عودًا في يده، يرسم به على الأرض أشكالاً هندسية، يرمز بها إلى

(4) الحديث النبوي وعلم النفس د/ محمد عثمان نجاتي ١٩٦، ط ثانية، دار الشروق١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

معان قائمة في ذهنه، يريد نقلها إلى المخاطبين.

وبتتبع نوعية الأحاديث التي استخدم فيها هذا اللون البياني نجد أنه ﷺاستخدمه في الأحاديث التي توضح مبتدأ الإنسان ومنتهاه، أي نقطة البداية ونقطة النهاية، ثم المراحل الحياتية التي تتوسطهما، وما يواجه الإنسان خلالها من أعراض، تحاول النيل منه، أصابته أو أخطأته.

ولعل في اختياره ﷺ عنصر الأرض بترابها وخواصها لمحة فنية رائعة، ترمز إلى أصل الإنسان ومنتهاه، إذ إنه منها خُلِقَ وإليها يعُود، وصدق الله العظيم: **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾** [١].

فعن عبدالله بن مسعود – ﷺ – قال: " خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا." [٢]

وأورد الرامهرمزي في كتابه " أمثال الحديث " ثلاث روايات لهذا الحديث، اثنتان عن عبد الله بن مسعود، والثالثة عن أبي سعيد الخدري أرقام ٧٢، ٧٣، ٧٤

عن عبدالله بن مسعود قال: " خط لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطًّا مربعًا وخط وسط الخط المربع خطًّا وخط خطوطًا إلى جانب الخط الذي وسط الخط المربع وخطًّا خارج المربع، ثم قال: أتدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا الخط الأوسط الإنسان، والخطوط التي إلى جانبه الأعراض، والأعراض تنهش من كل مكان، وإذا أخطأ هذا أصابه هذا، والخط الرابع الأجل المحيط به، والخط الخارج البعيد الأمل ".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " الإنسان هكذا المربع الأجل، والذي وسطه الإنسان، والحلقة الخارجية الأمل وهذه الحروف الأعراض، والأعراض تنهش من كل مكان، كلما أفلت من واحد أخذه واحد، والأجل قد جال دون الأمل " وأظن أنه " قد حال " وهذا تصحيف والله أعلم. قال أبو محمد هكذا كتبناه من كتابي " الحسين " وقال لنا الحسين هكذا كتبناه من كتاب " الرمادي " وقال الرمادي هكذا كتبناه من كتاب " أبي حذيفة " وعن أبي سعيد الخدري أن النبي – صلى الله عليه وسلم – غرس عودًا بين يديه وآخر إلى جانبه وآخر بعده، وقال: أتدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا الإنسان وهذا الأجل،

---

[١] الآية ٥٥ من سورة طه.

[٢] أقيسة النبي المصطفى – صلى الله عليه وسلم – رقم ١٥٠ ص١٧٦، وقال انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، ينظر فتح الباري ٢٣٥/١١، ٢٣٦، رقمي ٦٤١٧، ٦٤١٨، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده " مسند عبدالله بن مسعود " ٢٣٧/٥ رقم ٣٦٥٢ ط دار المعارف.

يتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون الأمل ." هذه الروايات ذكرها الرامهرمزي على الترتيب رقم ٧٢، ٧٣، ٧٤.

فالرسول ﷺ ليس بيانه قاصرًا في إفهام الناس على الظواهر الأسلوبية الكلامية الفصيحة الموروثة فحسب، وإنما للرسول ﷺ تعبيرات أخرى استحدثها كعادة ما يستحدث الحضاريون من رسوم بيانية وهندسية وهياكل تصويرية يرسمونها ويخطونها في الأماكن العامة للتعبير عن فترة زمنية اعتراها نظام أو حكم ما، وهذه الطريقة لها تاريخ في الوسط الحضاري.

نجد الرسول ﷺ وهو النبي الأمي الذي لم يستخدم قلمًا في رسم هيكل أو صورة للتعبير عن معنى ما، نجده في موقف يرسم لنا بخط أصابعه صورة بيانية، توجز النتيجة التي تكون من سعي الإنسان وما يعترضه من أعراض، وأجل يحول دون الأمل.

فالتعبيرُ عن الأعراض التي تعترض الإنسان في حياته وَصْفُها يحتاج إلى كلام كثير، كما أن آمال الإنسان التي تتولد في نفسه من خلال تأملاته ونظراته، ولأسباب نوازعه وميوله التي ما أكثرها، لا يمكن التعبير عنها ووصفها في مراحل الإنسان الزمنية في عمره طال أو قصر إلا بكلام كثير.

كذلك الأجل الذي يعترض الآمال، ويفاجئ الناس في أحوالهم المختلفة، لا يغادر منهم الصغير ولا الكبير، ولا ما بين ذلك، ووصف الأجل في كل تلك الأحوال يحتاج إلى كلام كثير.

كذلك أحوال الإنسان المختلفة مع أحداث الدنيا التي تعترضه، ومواقفه منها في حياته على اختلاف أشكالها تحتاج أيضًا إلى تفصيل كثير.

وقد نظر الرسول ﷺ إلى كل هذه الاعتبارات، ومظاهر الحياة فيها، حيث الإنسان والأحداث والأجل والأمل، ورسم لنا صورة تربط بينها جميعًا في قصة لها من الحدود والمراسيم ما لها.

فمثل الإنسان كمثل النقطة في داخل المربع، ولهذا الإنسان نظرة قوية مدفوعة، تريد أن تخترق الواقع، وتندفع للنفوذ منه، حيث إن الأمل له من قوة التحطيم والسيطرة ما يتعدى الحدود، ويعتدي عليها.

تلك صورة الإنسان وأمله في وسط عمره.

ثم نجد في الصورة تمثيلاً للأجل بالخط البياني في صورة المربع، وذلك يفيد معنى الإحاطة؛ لأن مولد الإنسان بداية الحصر، ونهاية الأجل غلق لهذا الحصر.

فالحديث في تصوير الأجل يفيد أن سعي الإنسان محصورٌ ومنتهٍ بانتهاء أجله، فلا تقديم ولا تأخير.

ورسم الأجل في صورة المربع فيه من الجمال ما فيه؛ إذ جاء الزمن وهو أمر وهمي في صورة واقعية تبصرها العيون، وترقبها، والتدخل في الحكم على الأجل في هذا الرسم القاطع البيّنة حدوده، لمن البلاغة التي تأخذ طريقها إلى القلوب، وتنقاد لها النفوس.

هذا وفي الحديث تصوير للأحداث التي تعترض الإنسان في حياته بالخطوط الصغار المتوازنة في مراحل تعترض الإنسان، هذا مناسب لأن الأحداث التي تعترض الإنسان

وتنهشه تعتبر بالنسبة للأجل صغيرة.

وإن كثرت وتغيرت إلا أن لها من الشوكة ما يتعثر الإنسان بسبب اعتراضها لكننا على الرغم من وجودها ونهشها، نرى الإنسان يكاد أن ينفذ إلى أمله، وهذا دليل على أن الأمل قوة كبيرة يندفع لها الإنسان لتعمر الحياة وهذه الأحداث التي تحدث للإنسان في حياته كذلك محاطة معه في داخل المربع، ومنها الأجل، لاتصال كل ذلك بحياة الإنسان، ومن ثم فالأعراض التي عبر عنها (بالخطوط الصغار) في داخل المربع لا في خارجه، لتكون المناسبة قوية[١]، وهذا هو الرسم الذي أرتضيه بناء على هذا الشرح:

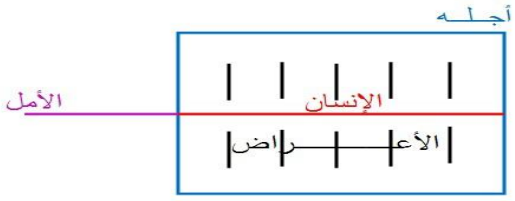

فالمربع يمثل الأجل بالنسبة للإنسان في هذه اللوحة البيانية، والإنسان يمثل الخط الذي في وسط المربع، والخطوط الصغار هي الأعراض التي تنهشه وتتجاذبه، والخط الخارج الأمل، ويحاول الإنسان الوصول إلى أمله، فيحول دونه الأجل.

ولقد تناولت جوانب هذا الرسم لإظهار كل ما في كل جانب من تمثيل، ليس على أنها منفصلة؛ إنما أوقن أنها مترابطة كل الترابط، ومتشابكة لا يمكن فصل أي جزئية منها إلا بإفساد الكل الشامل؛ لأن الجميع وحدة متماسكة، فالصورة من قبيل التشبيه التمثيلي المركب على رأي الجمهور.

والحديث عن هذه الجوانب مفصلة يظهر القيم في كل جانب، لكن الجمال في انضمامها جميعًا، وتشابكها كلية.

والحديث وإن كان التعبير فيه عن المعنى بالخطوط الرسمية الهندسية، وليس بالكلمات ولا بالعبارات البليغة، فطريقة الرسم طريقة توضيحية بيانية، يؤخذ بها في طرق التعليم الحديثة، لما لها من سلطان قاهر في اختراق حواجز العقول، لتنفذ إلى كل الأفهام، وكل الأعمار.

وقد قام الرسم هنا بمهمة المثل، وهي توضيح المعنى وتجليته، وهو يعد من قبيل تشبيه التمثيل. [٢]

هذا فضلاً عن التصريح بلفظ المثل في رواية أخرى أسندها ابن حجر العسقلاني، ونقلها عنه الإمام الحافظ عن أنس، وهو قوله ﷺ بعدما خط خطوطًا ناحية ثم قال: هل تدرون ما هذا ؟ هذا مثل ابن آدم، ومثل التمني، وذلك الخط الأمل، بينما يأمل إذ جاءه الموت. [٣].

هذا وقد صرح ابن حجر العسقلاني في

(١) وهناك رسوم بيانية أخرى يرجع إليها في مصادرها مثل: فتح الباري ٢٣٧/١١، أمثال الحديث للرامهرمزي ص١١٠ تحقيق أحمد عبد الفتاح تمام.

(٢) أوضح دليل على ذلك أن الرامهرمزي عده ضمن أمثاله المأثورة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمثال الحديث للقاضي الرامهرمزي ذكره رقم ٧٢، ٧٣، ٧٤، وذكره ابن حجر في فتح الباري ٢٣٧/١١، ٢٣٨، كتاب الزهد الكبير للبيهقي تحقيق د/ تقي الدين الندوي ط ثانية ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م، ص٢١٩، رقم ٤٥٠، دار القلم، الكويت.

(٣) فتح الباري ٢٣٨/١١

تفسيره لمعنى الخط الممتد من داخل المربع بأن هذا الرسم على سبيل التمثيل أي تقريب المعنى، فقال: " هذا الخط هو الإنسان على التمثيل. " (١).

ومن ثم يتبدى لنا عظمة البلاغة المحمدية التي جمعت كل هذه المعاني الراقية والمتنوعة في كلمات موجزة بليغة، ولا عجب فقد أوتي جوامع الكلم ﷺ.

وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري – ﷺ– أن رسول الله ﷺ غرز عودًا بين يديه، وآخر إلى جنبه، وآخر بعده، فقال: تدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم به. قال: فإن هذا الإنسان، وهذا الأجل، فيتعاطى الأمل، فيختلجه الأجل دون الأمل." (٢).

وتتعاضد هذه الرواية مع الرواية السابقة في توضيح المعنى، وترسيخ الفكرة، وهي تصوير قرب الأجل، وطول الأمل وبعده، حتى تستوعبها أذهان السامعين.

وقد علق محمد أحمد الراشد على هذا الحديث تعليقًا بديعًا فقال:" من خلال هذا الرسم الموضح للمعاني الراقية، نجد أن قائد الحركة الإسلامية ﷺ رسم للدعاة إلى الله خطة حصار الأجل للأماني الكواذب ... وتكتمل بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن التجريدي فريدة ... إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غزوًا فيه إلحاح، عدوى، أو سرطان أو حريق، أو غرق، أو زلق، أو سقوط، أو اصطدام، أو لدغة، أو تسمم بطعام، أو طلقة تائهة، فإذا نجا من كل ذلك كان له في الهرم، وضغط الدم، وارتفاع نسبة السكر، تأديب أي تأديب، فإن أطال النفس، اقتص منه الموت ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ** ﴾.(٣)

تعددت الأسباب والموت واحد، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهم الإفلات حصارًا شديدًا.

أمل أبيض، وضاء، كلما برق، زهت في نظر صاحبه الأموال، والنساء الحسان، والعطور، والقصور، والمناصب، والشهادات، فينسى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات دعوته ... لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله إنما يلفه محيط أسود حالك، يتيه فيما دونه من الظلمات، ما لم يتبع في مشيه مخرجًا تدل عليه التقوى.

فهو ترقب جميل، لكنه يتنغص ... وظل جميل لكنه يتقلص ... ومطامع وراء الأودية والمفاوز، وليس هو لما قُدِّر له بمجاوز ... وأنفاس قبل ذلك تُعَدّ ... ورحاله تُشَد ... وعاريته تُرَد. والتراب من بعد ينتظر الخد ... فإنه ليس عقبى الباقي غير اللحاق بالماضي... وعلى أثر من سلف يمشي من خلف ...وما ثم إلا أمل مكذوب .... وأجل مكتوب .....(٤).

---

(١) السابق الجزء والصفحة.

(٢) البيهقي في الزهد ص٢٢٠ رقم ٤٥٤، وأخرجه أحمد أيضًا. وقال الهيثمي في المجمع ٢٥٥/١٠ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرافعي وهو ثقة.

(٣) الجمعة من الآية ٨

(٤) ينظر: الرقائق للأستاذ/ محمد أحمد الراشد ص ١٠٣: ١١٠ ط: ثانية مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع.

إن الذي يعيش مترقبًا النهاية يعيش معدًا لها، فإن كان معدًّا لها، عاش راضيًا بها، فإن عاش راضيًا بها كان عمره في حاضر مستمر، كأنه في ساعة واحدة، يشهد أولها ويحس آخرها، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه ما دام ينقاد معه، وينسجم فيه، غير محاول في الليل أن يبعد الصبح، ولا في الصبح أن يبعد الليل.

(٢) الاستفادة من الخطوط وأنواعها:

وكما استفاد النصّ الديني من الأشكال الهندسية في توصيل الفكرة، وتقريبها إلى الأذهان، وتجسيدها ضمن المثل المحسوس؛ استفاد من الخطوط وأنواعها:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١)، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٢)،

فالقرآن الكريم – هنا – يصف صراط الله بأنّه الصراط المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾، ويطلب من المؤمنين أن يسألوا الله أن يهديهم إلى الصراط المستقيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ويعبّر عن صراط الله بأنّه ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لا الصراط المنحني، ولا الصراط المتعرّج، فيستخدم وصف (المستقيم)؛ لأنّ الخطّ المستقيم هو أقصر الخطوط الموصلة بين نقطتين، وهذا الوصف هو اللائق بصراط الله الواضح البيّن الذي لا تخبّط فيه، والذي يوصل متّبعيه بأقصر مسافة إلى الله.

ويعرف إبليس أنّ الصراط المستقيم هو صراط الله، وهو أقصر الخطوط الموصلة بين نقطتين، ولذلك يعِد أن يجلس فيه؛ ليقطع الطريق إلى الله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٣)، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٤).

وقد استعمل الرسول الأكرم – صلى الله عليه وسلم – الرسم؛ لإيصال الفكرة إلى الأفكار المجرّدة، وتجسيدها، وتقريبها إلى الأذهان، .، فعن أبي وائل عن عبد الله قال: "خطّ لنا رسول الله – صلى الله عليه وآله – خطًا، ثم خطّ عن يمينه وعن شماله خطوطًا، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه السبل، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٥)"(٦).

وكما استثمره في توضيح الآي القرآني والصراط المستقيم استثمره في بيان ثنائية

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
(٢) سورة الفاتحة، الآية ٦. ٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦.
(٤) سورة النساء، الآية ١١٩. ١٢٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
(٦) مستدرك الحاكم ٢/ ٣١٨، (شأن نزول آية: ﴿يسألونك عن اليتامى﴾).

الموت والأمل، وحراكهما التسابقي نحو الإنسان، فعن أنس بن مالك قال: "خطّ النبي – صلى الله عليه وسلم – خطوطًا فقال: هذا الأمل، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخطّ الأقرب"(١).

فقد كان يرسم ما يريد أحيانًا على الأرض؛ كما رسم لهم صراطَ الله كخطٍّ مستقيم، وسُبلَ الشيطان بخطوط معوجَّة، وكما رسم لهم مربعًا، رسم دائرة في وسطه كما ورد في بعض الروايات وقال: ((هذا هو ابن آدم)) ورسم دائرة خارجةً من المربع، وقال: ((هذا أمَلُه)) ورسم خطوطًا معترضة بين الدائرة الوسطى (الإنسان) وبين الدائرة الخارجة (الأمل)، وقال عن هذه الخطوط: ((هذه الأعراض))؛ أي: المشاكل والحوادث التي تعرض للإنسان قبل الأجَل، ويريد بهذا صلى الله عليه وسلم أن يصوّر أن الإنسانَ يموت قبل أن يصلَ إلى مراده وأمله، فصوَّرها بصورةٍ حسية عجيبة.

ثالثًا: **الجبر**:

سبق وأن قلنا بأنّ الجبر يعنى بالكسور والمعادلات والمتراجحات والعلاقات الأعداد.

وقد استعان الدين كثيرًا بذلك؛ لبيان مراداته، ومن أبرز الموارد التي استثمر فيها القرآن الكريم والسنة المباركة الجبر موضوع الوصية والإرث.

يقول سعد بن أبي وقاص: "جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – يعودني، وأنا بمكة، وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها، قال: يرحم الله ابن عفراء، قلتُ: يا رسول الله، أوصى بمالي كلّه؟، قال: لا..، قلتُ: فالشطر؟، قال: لا..، قلتُ: الثلث؟، قال: فالثلث، والثلث كثير؛ إنّك إن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس في أيديهم، وإنّك مهما أنفقتَ من نفقة فإنّها صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى فيّ امرأتك، وعسى الله أن يرفعك، فينتفع بك ناس، ويضرّ بك آخرون، ولم يكن له يومئذ الا ابنة"(٢).

وقال تعالى في شأن الإرث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ

(١) صحيح البخاري ٧/ ١٧١، (كتاب الرّقاق).

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٨٦، (كتاب الوصايا).

وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

وقد حفلت هاتان الآيتان المباركتان بذكر الكثير من النسب الجبرية، فذكرتا النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن. ويأتي هذا الاستعمال الجبري – بدلًا من التحديد العددي – ؛ للتعميم والشمول، والانطباق على كلّ تركة، فلو ذكر عدداً صحيحاً، وقال: ورّثوهم عشرة آلاف، أو أقلّ أكثر، لما انطبق ذلك من تركة إلى أخرى، ولكنّ التحديد الجبري (النسبة) ينطبق على أيّ تركة مهما صغرت أو كبرت، فينطبق عليها النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن، وغير ذلك من النسب.

(١) سورة النساء، الآية ١١. ١٢.

المصادر والمراجع:

. القرآن الكريم.

. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م). الكامل في التاريخ. ط ١. بيروت/ لبنان: دار صادر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م). صحيح البخاري. د ط. بيروت/ لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

. البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد الفرّاء (ت ٥١٠هـ/ ١١١٧م). معالم التنزيل في تفسير القرآن، المشهور بـ (تفسير البغوي). تحقيق: خالد عبد الرحمن العك. ط ١. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، د ت.

– الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، سنن الترمذي (الجامع الصحيح). تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م.

– التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (ت ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م). مختصر المعاني. ط ١. قم/ إيران: منشورات دار الفكر، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

. الجصّاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م). أحكام القرآن. تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م). تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح). تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار. ط ٤. بيروت/ لبنان: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

. الحاكم النيسابوري، الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبّي (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م). المستدرك على الصحيحين. تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي. د ط. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، د ت.

. ابن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م). مسند الإمام أحمد بن حنبل. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ودار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

. الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر. (ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م). تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتح الغيب). ط ٣. بيروت/ لبنان: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

. السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث الأزدي (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م). سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. د ب. د ت.

. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م). إرشاد العقد السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المشهور بـ (تفسير أبي السعود). ط ١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، د ت.

. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م). تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير). تقديم: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي. ط ١. بيروت/ لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

. ابن ماجة، محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني (ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م). سنن ابن ماجة. تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الفكر، د ت.

. المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين عبد الملك البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ضبط وتفسير: الشيخ بكري حيَّاني. تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا. ط ١. حلب/ سورية: منشورات دار الكتاب الإسلامي، د ت.

- ابن منظور، محمد بن مكرّم بن علي الأنصاري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م). لسان العرب. تنسيق: علي شيري. ط ١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- ابن النحّاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي (ت ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م). معاني القرآن الكريم. منشورات (جامعة أم القرى بمكة). ط ١. تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني. مكة المكرّمة/ السعودية: مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م). تفسير القرآن الجليل، المُسمّى بـ (مدارك التنزيل وحقائق التأويل). د ط. بيروت/ لبنان، ودمشق/ سورية: المكتبة الأموية، وحماه/ سورية: مكتبة الغزالي، د ت.

. النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م). الجامع الصحيح (صحيح مسلم). د ط. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، د ت.

******

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل